فعاد ثانيةً إلى العبث والمرواغة، وطَفِق يقول: أمَّا إن كنتُ أمثل معها على الستار الأبيض فأنتِ تعلمين أن القبلة لا غنى عنها ... تلك واجبات الفن يا صديقتي، ولا تتم الفنون إلا ببعض التضحية!

قالت: أوَتضحية هي؟

قال: نعم، كل قبلة غير قبلة المرأة التي يحبها الرجل هي تضحية، بل هي — إن شئتِ — سخرة!

فرضيت وهي تعلم أنه يغالط ويراوغ في الجواب، وأَحَبَّتْ أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة إذا أتيح له تقبيلها ... وهي تعلم أنه لا يقول صدقًا ولا يعمد إلى الصراحة! ... وقالت وهي تضحك: لقد نجوت! إن قبلة تتمناها لهي خيانة في الضمير، ولا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع إلا التنفيذ.

وإذا خرجا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيرًا ما كانت تمد يدها إلى مفكرته في جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة، أو تناسب الرياضة التي خرجا لها إن كانت مناسبة ملحوظة.

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجِّلة: «هل أعجبتك رواية المرأة المترجِّلة؟ أمَّا أنا فسأكون لك امرأتك فقط.»

وكتبت مرة أخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة: «أرجو ألَّا ترى المرأة المحتالة إلا في السينما، أمَّا في الحياة فحسبك المخلصة ... فلانة.»

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهي تذكر كل كلمة قالها في التعليق عليها أو في انتقادها، فاتفق يومًا أنهما حضرا الصور المتحركة في إحدى الضواحي الصيفية، حيث تُعرَض المشاهد القديمة بعد سنةٍ أو سنتين من عرضها في المسارح الكبيرة، وشهدا هناك رواية هزلية عن صيَّادٍ فاشلٍ يستعيضُ من فشله في الصيد بالمبالغة في الوصف والحكاية، فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة في اتجاهٍ واحدٍ فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب، ويظل يتساقط من هنا وهناك إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظةٍ غير قصيرة.

فقال لها: أليس الأحسن والأبرع أن يسقط هذا الطير مشويًّا على الأطباق؟

فضحكت طويلًا وقالت: أتذكر؟ إنك قلت هذه الكلمة بعينها عندما شهدنا هذه الرواية في البلد للمرة الأولى!